ذكرى المناضل الشيخ أحمد عارف الزين ومجلة ’العرفان’

19 - يناير - 2010

sss. محمد المجذوبssspp أعتقد أن المقصد الأساسي الذي حدا بأفراد أسرة العالم الجليل الراحل، الشيخ أحمد عارف الزين، مؤسس مجلة ‘ العرفان’، إلى دعوتي للمشاركة في هذا المهرجان التكريمي، يكمن في عدة اعتبارات:- منها أنني من أبناء صيدا، أي من المدينة التي عاش فيها شيخنا الجليل وحوّلها، في سنوات معدودات، إلى خليّةٍ للعلم والثقافة وصرحٍ للفكر التحرري التقدمي المقاوم. ppp- ومنها أن صيدا كانت، في النصف الأول من القرن المنصرم، قبلة الأنظار والأفكار والأحبار والأخيار بفضل صاحب ‘ العرفان’ التي تفوّقت، بموضوعاتها وطباعتها ونفحاتها العلمية والقومية، على المجلات الكبرى في الوطن العربي. – ومنها أن الكبار من أسرتي، وخصوصاً جدي ووالدي، كانوا من المقربين من شيخنا الجليل، ومن أشد المعجبين بعلمه وخلقه وجهاده وتفانيه من أجل النهضة والوحدة والحرية في الوطن العربي. – ومنها أن مكتب الشيخ الجليل ومجلته ومطبعته كانت تقع في صيدا القديمة، في طابق أرضي مجاور لساحة (باب السراي)، وأن منزلنا الذي ترعرعنا فيه كان على بُعد أمتار من هذا الصرح الثقافي. وقد أتاح لنا هذا القرب الجغرافي الاقتراب من الشيخ الجليل ورؤيته وراء مكتبه، أكثر من مرة في اليوم، أثناء توجهنا إلى المدرسة وعودتنا منها، وأثناء ممارستنا، في أوقات الفراغ، لعبة الكرة قرب بركة (باب السراي). – ومنها أن ظهور ‘ العرفان’ في بداية كل شهر كان يوم عيد وحركة وفرح في صيدا. ولأن التوزيع كان يتم آنذاك باليد، لا بالبريد، فقد كنا، نحن الفتيان، نتساءل دوماً عن سرّ التهافت على أبواب المطبعة في مطلع كل شهر. وكنا نسمع إجابة واحدة: لقد صدرت مجلة ‘ العرفان’. – ومنها أن حصولنا بسهولة وسرعة على ‘

العرفان’، في غياب المجلات الأخرى، أو لصعوبة اقتنائها أو تعذّر وصولها، قد جعل من جيلنا جيل ‘ العرفان’، أي الجيل الذي استطاع، من مجلة واحدة جامعة، الإطلاع على شتى أنواع المعرفة، وشتى ضروب الأحداث والتطورات العالمية، وشتى مواقف التيارات والمذاهب السياسية والاجتماعية المتنافسة أو المتصادمة. وكنا لشدة تأثرنا بالمجلة وصاحبها نجنح إلى إضفاء هالات من الاكبار عليهما والاعتزاز بهما. فالكبار من سكان صيدا كانوا يترنّمون باسم الشيخ عارف عندما يضربون المثل بعالم كبير، أو ببطل قومي، أو بثائر على التقاليد والأعراف البالية، أو بمناضل من أجل التخلّص من آفات الاستعمار والانتداب والتخلّف، أو بمنادٍ بالوحدة العربية والقضاء على الخطر الصهيوني. ومن الذكريات العزيزة التي لا أنساها أن أستاذ مادة الإنشاء طلب منا يوماً كتابة موضوعٍ في تمجيد قلعة صيدا البحرية التي تعتبر من الآثار التاريخية الباقية، فوجدت نفسي مدفوعاً إلى إجراء مقارنة، تتّسم بالصدق والعفوية، بين تلك القلعة ومجلة ‘ العرفان’. وكتبت آنذاك، متأثراً وفخوراً بالمجلة: ‘ إن القلعة حجر، والمجلة فكر. والحجر مادة والفكر روح. والروح أسمى من المادة وأخلد على الزمان. ومن المحتمل أن تنهار القلعة يوماً أو تفنى، أما تعاليم ‘ العرفان’ فستبقى راسخة في العقول والمكتبات، تتحدى الفناء وتغذّي الأجيال المتعاقبة بزبدة الفكر العلمي والثقافي والأخلاقي والوطني’. وأنهيت موضوع الإنشاء الذي تُلي في الصف، بطلب من الأستاذ، عدة مرات، بالقول إن ‘ العرفان’ أصبحت، بالنسبة إلى تاريخ صيدا ولبنان، من المآثر والمفاخر الخالدة التي تضاهي قيمة القلعة. وإلى جانب تلك الاعتبارات، فإن كل مطلع أو ناقد نزيه لا يسعه إلاّ الاعتراف بأن الشيخ عارف الزين ومجلته ‘ العرفان’ كانا صنوين أو توأمين عاشا وناضلا وخبرا معاً حلو الحياة الفكرية والسياسية ومرها، مدة نصف قرن، دون أن يُصابا بمللٍ أو إحباط، ودون أن يتخليّا يوماً، رغم المغريات والتهديدات، عن مبدأ واحد من المبادئ القومية والأخلاقية التي آمنا بها، وكافحنا من أجلها، وتعرّضنا للسجن والتعطيل بسبب الدفاع عنها.

والحديث عن المجلة لا يصح ولا يستقيم من دون الحديث عن منشئها وصاحبها الوقور الذي كرّس وجوده وفكره وكتاباته (كما ذكر في أحد أعدادها) ' لمحاربة الزعماء المستبدين، ونقد الموظفين الخائنين المرتشين، ونصرة القائمين بنشر الحرية والدستور'. وكلمة الدستور هنا تشير إلى الدستور العثماني الذي عطله السلطان عبد الحميد، فأدى ذلك إلى تحرك رجال الإصلاح، ومنهم شيخنا الجليل، لإعادة العمل بالحياة النيابية في العام 1908. ومع أن العرب استبشروا خيراً بالتغيّر الذي طرأ على أوضاع السلطنة العثمانية، ورفعوا شعارات الحرية والمساواة، وبادر المثقفون منهم إلى الانخراط في جمعية ' الاتحاد والترقّي'، فإنهم سرعان ما تبيّنوا أن أقطابها عنصريون حاقدون يسعون إلى تتريك العرب. وفي هذا الخضم السياسي أنشأ شيخنا الجليل مجلة شهرية ' العرفان'، فصدر العدد الأول منها في شباط (فبراير) 1909، وكان في 114 صفحة بحجم مجلة ' الهلال' المصرية، وعلى غلافها من اليمين آية قرآنية (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)، ومن اليسار حكمة رفيعة (تعلّم العلم من المهد إلى اللحد). وفي العام 1910 كان للمجلة مطبعتها الخاصة التي كانت آنذاك من أهم مطابع الشرق. ولم يمض على صدورها عام حتى شرعت تنافس أشهر مجلات الوطن العربي من أمثال ' الهلال' و' المقتطف' المصريتين، وحتى أصبحت من أعظم منابر الأدباء والشعراء والعلماء في أرجاء الوطن العربي. وفي العام 1912، أصدر جريدة ' جبل عامل' الأسبوعية. وفي العام 1913، نشر كتابه ' تاريخ صيدا'. وتميّزت المجلة باتّباعها النهج الإصلاحي والأخلاقي في كل الشؤون السياسية والوطنية والعلمية. وبقي نهجها واحداً لم يتغير. ويتلّخص في محاربة العبوديّة والتخلّف، وتشجيع العلم والثقافة.وكانت المجلة والمطبعة، في النصف الأول من القرن المنصرم، ظاهرةً فريدةً في مجال الحركات الفكرية والوطنية. والجدير بالإعجاب والإكبار أن رجلاً واحداً، هو صاحب ' العرفان'، تمكّن بمفرده، ودون مساعدات خارجية، ولمدة نصف قرن، من القيام بإدارة المجلة والمطبعة، والإنفاق عليهما، وتوفير

أسباب الاستمرار والتطور والازدهار لهما. وبسبب صموده وثباته عاشت ' العرفان'، طوال هذه الفترة، في رعايته معزّزةً مكرّمةً، في الوقت الذي تهاوت فيه صروح أعرق المجلات وأشهرها في الوطن العربي. وحبّه العارم لوطنه جعله يُتوّج مجلته بشعار (حب الوطن من الإيمان). وإيمانه العميق بأمته العربية جعله يُقارع الاستعمار والانتداب، ويدعو إلى الوحدة العربية، ويُردّد في خطبه: إن تَسَلْ عني فهذا نسبيعربيّ عربيّ عربي ومن خصاله وفضائله أنه لا يعرف الحلول الوسط في القضايا الوطنية والقومية، ولا يُتقن كغيره فن التزلّف والتملق للمستعمرين والفاسدين وأصحاب النفوذ، ولا يُلقي سلاحه أو ينقل البندقية من كتف إلى كتف مهما تكن المغريات والتهديدات. وبسبب هذا العنفوان حُكم عليه، في العام 1913، بالسجن لتهجّمه على السلطة الطاغية وجمعية (الاتحاد والترقّي) العنصرية. وسيق إلى السجن، مرة أخرى، في العام 1915، بتهمة تأليف جمعية سرية (جمعية فتاة العروبة). وفي العام 1932، انتهت مدة امتياز (شركة التبغ والتنباك)، وكانت شركة فرنسية احتكارية. وعندما عزمت سلطة الانتداب على تجديد الامتياز، أعلن أهل الجنوب الإضراب احتجاجاً، فعمدت تلك السلطة إلى تعيين ضابط فرنسي بطاّش (اسمه بتشكوف) حاكماً بأمره في الجنوب، فاتّخذ تدابير قمعية بحق مزارعي التبغ. وألقى شيخنا الجليل خطاباً نارياً ندّد فيه باستبداد الضابط، فكلّفه ذلك التعرّض لأحكام بالسجن. وفي صيف العام 1936، قامت في صيدا تظاهرات تهدف إلى منع إدخال السلع اليهودية من فلسطين إلى لبنان، ومنع تهريب الخضر والفواكه اللبنانية إلى فلسطين، عبر الحدود الجنوبية. وكانت حركة المقاطعة بقيادة الزعيم الشهيد معروف سعد الذي أصيب، خلال اقتحامه البطولي قشلة الدرك، بجراح خطيرة. وعندها وقف شيخنا الجليل في جموع المتظاهرين وارتجل خطبة حماسية رائعة ندّد فيها بالاستعمار وعملائه، ودعا إلى إعلان إضراب مفتوح يستمر حتى الإفراج عن رفيق كفاحه، معروف سعد. وبعد أيام اعتقل شيخنا الجليل، فاستمر الإضراب وأمّت الجماهير

منزله معلنةً تأييدها له وسخطها على سلطة الانتداب. وبعد أسابيع صدر حكم عليه بالسجن شهرين، وعلى معروف سعد بالسجن عشرة أشهر. وفي العام 1937، عقد (المؤتمر القومي العربي) في بلودان (سورية)، وضمّ وفوداً وشخصيات متميزة ومعروفة من الأقطار العربية، كان من بينها شيخنا الجليل. وكان الهدف من عقد المؤتمر الدفاع عن عروبة فلسطين، ومقاومة الخطر الصهيوني الذي بدأ يستفحل بالتواطؤ مع بريطانيا والقوى الغربية الكبرى. والحقيقة أنه لم يُعقد مؤتمر وطني أو قومي في أي مدينة عربية إلاّ كان شيخنا الجليل في طليعة المدعوين إليه والمشاركين فيه والمساهمين، بمداخلاتهم، في إيقاظ الشعور القومي وحثّ الحكام العرب على التآلف والتضامن للوقوف في وجه المستعمرين والمتآمرين. وبالإضافة إلى النزعة الوطنية والقومية التي اشتهر بها شيخنا الجليل، فإن منزله في صيدا، المجاور لمنزل جدي، كان، لعدم وجود فنادق في المدينة، مضافةً يوميةً للزوار والمدعوين من الشخصيات الوطنية والعلمية. وكانت أحاديثهم الأدبية والوطنية تطغى على كل حديث، وذلك على غرار ما كان يجري في الصالات (أو الصالونات، كما يقال) الأدبية التي نشأت في القرن السابع عشر في باريس، أو أُقيمت في القرن الماضي في القاهرة. ومن خصاله الحميدة أنه كان يشجع العلم والمعرفة ويحثّ الناشئة من أصحاب المواهب على الكتابة في ' العرفان'. لقد جسّد في مواقفه العقيدة والجهاد ضد القوة والسلطان، فامتُحن بالسجن، وتعرّض للحرمان، وكوفئ بالجحود، فلم تهُن عزيمته، ولم يتخلّ عن مبادئه، ولم يغيّر مسلكه. ولا يسعنا، في هذا الزمن الرديء الذي نشهد فيها انهياراً في القيم والمُثُل، وتفسّخاً في المسالك والمناقب، وانقلاباً في المعايير والموازين، إلاّ أن نتذكر الأبطال الأشاوس الذين ناضلوا بالكلمات والمواقف الثابتة، وغمروا الوطن بالتضحيات، وكانوا قدوةً في التفاني من أجل المبادئ الرفيعة. وشيخنا الجليل من هؤلاء، بل في طليعة هؤلاء. وقد أتيح لنا يوماً أن نتحدث عن الخصال السامية التي أُثِرت عن هذا الشيخ الفاضل المفضال، والتي بتنا اليوم نفتقر إليها ونحلم

بها. وقد لخصناها بالأمور الآتية:1- الانسجام حتى الانصهار بين المبادئ التي نادى بها والأفعال التي أقدم عليها.2- النضال المتواصل من أجل الأهداف والقيم القومية والإنسانية، الذي تجلّى في مقارعة الاستبداد العثماني عندما كان في جبروته، ومقاومة الانتداب الفرنسي عندما كان في عزّه، والتصدي للمفاسد والانحرافات عندما كان الاستقلال اللبناني في بدايته. 3- رفض إغراءات المال والجاه والوزارات والمناصب، وتفضيل مشقّات الجهاد على ملذات الحياة. 4- الاعتزاز والاعتداد بالانتماء العربي، والإعلان في كل مناسبة ' بأننا عرب قبل أن نكون مسلمين'، وبأننا ' باسم العرب نحيا، وباسم العرب نموت'، وبأن ' الوحدة العربية ضالة كلّ قومي عربيّ أبيّ، وبأنها خفقة من خفقات قلب كل عربي'. 5- التسامح الديني والمذهبي، ونبذ التعصب والتحاسد والتباغض، ودعوة المسلمين إلى توحيد مذاهبهم، وحثّ المسلمين والمسيحيين على اعتناق ' دين الوطنية'، والتخلي عن رداء النفاق والشقاق و ' الانضواء تحت علم الوطن المقدس' لأننا ' بحاجة ماسة إلى الاقتداء بغيرنا من الشعوب والأمم'.6- اعتبار الأخلاق عماد كل إصلاح، لأن فسادها كان من أهم الأسباب التي أدّت إلى تخلّف العرب، ولأن العودة إلى مكارم الأخلاق كفيلة بتحقيق النهوض واستعادة الأمجاد.رحم الله شيخنا الفاضل الوقور الذي كان رائداً من رواد الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي، وفارساً من فرسان الثورة على المفاسد التي نخرت عظام الأمة، وعلماً من أعلام الفكر العربي المحرّك للضمائر النائمة أو الهائمة. وسامح الله المسؤولين عندنا، الذين لم يفكروا يوماً في إطلاق اسمه على مؤسسات أو معاهد أو مشاريع، ولم يعمدوا إلى إحياء ذكراه في يوم مولده، أو يوم رحيله، أو يوم تأسيس مجلته، أو يوم اضطرارها إلى التوقف عن الصدور. وعتبنا على المتمولين الكبار من أهل الجنوب الذين ينفقون المليارات على المشروعات الضخمة والقصور الفخمة ويحجمون عن إحياء مجلة كانت، حتى سنوات خلت، أضخم مشروع للنهضة الفكرية الثقافية، وأفخم قصر شُيّد

لتعميم فكرة الوحدة والتوحيد.رئيس المنتدى القومي العربي في لبنانqd

اترك تعليقاً

لن يتم نشر عنوان بريدك الإلكتروني. الحقول الإلزامية مشار إليها بـ *

التعليق *

الاسم *

البريد الإلكتروني *

إرسال التعليق


adberries